قراءة جديدة لتراثنا الأدبي

دكتور

حبيب بن معلا اللويحق المطيرى

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد

ومنهج الأدب الإسلامي بكلية اللغة العربية

جامعة الإمام بن سعود الإسلامية

تقديم

ثم ظاهرة عالمية تنظم ثقافات كثيرة في عالمنا المعاصر تتمثل في عودة جماعـية للتـراث الروحي من جهة ، وللتراث الثقافي من جهة أخرى [1] ؛ إحياء مجرداً في حين ، وإحياءً مقترناً بأبعاد فكرية تهدف إلى التبرير لواقع معين أو لبعث نهضة جديدة في آحايين كثيرة . ولم تخل الثقافة العربية من هـذه العودة المحمومة للتراث فانتظمت الأمة مشروعات ضخمة تهدف إلى إعادة بعث الروح في الإرث الحضاري للأمة ؛ ويعنينا هنا : التراث الأدبي فـي مجاميع الأدب الكبار التي صنفها الجماع الأوائل الذين سودوا صفحات كثيـرة في أعار العرب وأخبارها وآثارها وأوصافها ورجالها ، وظهر على الأدب الجامع هذا [2].وهذا الإحياء العربي قد ظهر مراراً على ثلاثة أشكال:

الأول : الاسـتدعاء التاريخي في الإبداع ؛ وهذا يختلف باختلاف الفكر الذي ينتمـي إليه صاحب النص [3] ، وغير خافٍ أن استحضار التاريخ للاعتبار

١-للمزيد : انظر : على مكى ، إحياء التراث العالمي ، دار الآفاق ، ط ١، ٢٠٠١ م ص ٤٢ ، ومـا بعـدها ، وانظـر : د. سفر الحوالى ، ظاهرة العودة العالمية للتراث الروحي ، المحاضرة فى مهرجان الجنادرية ١٤٠٨هـ ، ص٢٤٦.

٢- انظـر في مفهوم الأدب في مادة الكلمة : ابن منظور، اللسان ، ١/ ٢٠٦ ، ط ١٤ ، ١٤٢٥هـ وابـن خلدون ، المقدمة ، طبعة مصر ، ص ٦٤٧ ، وبدوى طبانة ، دراسات في نقد الأدب العربي ، دار الثقافة ، الطبعة السادسة ، ١٣٩٤ هـ ، ص ١٣، وما بعدها .

٣- انظـر – مثلا : نجيب الكيلانى ، عمر يظهر في القدس ، دار الرسالة ١٣٩٨ هـ ، وميخائيل عيد ، أغاني الحلاج ، دار بيروت ، ١٩٨١ م.

والاتعـــاظ بأحداثـــه ، أو لإسقاطه على أحداث معاصرة ، أو تحميله قضايا المجتمعات وسيلة فنية رائعة .

الثانـــي : تحقيق هذه المجاميع الكبار ونشرها ؛ فمثلا – مع بدايات ما يسمى (عصر النهضة) أعيدت طباعة أمهات الكتب العربية ؛ حيث طبعت المطبعة الأميرية فى زمن محمد على طائفة ضخمة من كتب التراث العربي ؛ منها :

المثل السائر لابن الأثير .

والأغاني لأبى الفرج .

تاريخ ابن خلدون ومقدمته.

لسان العرب لابن منظور.

والعقد الفريد لابن عبد ربه .

وفقه اللغة للثعالبي .

ووفيان الأعيان لابن خلكان . وحياة الحيوان للدميرى ،

ونفح الطيب للمقرى .

ثـــم توالـــى الجهـــد بعـــد ذلك ، وتوالت المجاميع اللغوية والمطابع المخـــتلفة نـــشر التراث العربي الزاخر ، ونشط المحققون فى تحقيق كل ما يقعـــون علـــيه ، فظهر : زهر الآداب للحصيري القيرواني ، وخزانة الأدب للبغدادي ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والحيوان لـــه ، والكامل للمبرد ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، والمستظرف للأشبيهى ، وصبح الأعشى للقلقشندى .. وغيرها .

الثالث : تصنيف كتب تؤرخ للأدب العربي ، وبدأها المستشرقون مثل :

١- يوسف هامربرو جستال الذي طبع له في فيينا كتاب في (تاريخ آداب العرب)من ٧ أجزاء سنة ١٨٥٠م.

٢- ألفريد فون كريمر النمساوي الذي صنف (مختصر فى تاريخ عمران المشرق في عصر الخلفاء) الذي طبع في فيينا عام ١٩٧٧م.

٣- أرتبنوت الانجليزى الذي صنف في التاريخ والأدب العربيين في سنة ١٨٩٠م.

٤- ادواردفانديك ، وفيلبدس قسطنطين ؛ ألف فى تاريخ العرب وآدابهم وطبع في (بولاق)سنة ١٨٩٢ م. وغيرهم .

ثم توالت المؤلفات العربية المؤرخة للأدب ،مثل :

١- تاريخ آداب العرب للرافعى .

٢- تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان .

٣- الوسيط في الأدب العربي وتاريخه لأحمد الاسكندرانى ومصطفى عناني .

٤- تاريخ الأدب العربي لأحمد الزيات .

٥- تاريخ آداب العرب لفؤاد سركين .

٦- تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف . وغيرهم كثير ،

لقد كان موقف طائفة من المثقفين في الأوساط الثقافية العربية النظر إلى هذا التـــراث بازدراء والحط من قدره ، وممن يوحي فكرهم بهذا ، طه حسين ، ولويس عوض ،سلامه موسى ،وزكى نجيب محمود [1]ثم طائفة أخرى قدست هـــذا التـــراث ، واعتبرته شاهدا حضاريا ضخما على ثقافة الأمة وخلودها وإرثهـــا الأممى الكبير ، ويهدف هذا البحث المختصر إلى دعوة هذه الطائفة الأخيرة إلى قراءة جديدة لتراثنا الأدبي .

-١-

إن هـــذا التراث الزاخر بالعطاء الذي يعد لسانا ناطقا بالأخبار والآثار لا يـــصح إهـــداره كما يفعل الموتوروز والشعوبيون ، كما لا يصح رفعه فوق قدره وجعله صورة صادقة للعرب الأوائل لم يعرها التبديل والتحريف .

وفى الحركة الثقافية العربية نجد حركة محمومة لإعادة إحياء التراث لا لاقتباس جذوة المعرفة منه وإنما لأهداف منها :

١- نـــشر التـــراجم وتكرار التنويه بشخصيات عرفت في التاريخ الإسلامي بالإلحـــاد كـــابن الراوندى ، والحلاج ، وابن سبعين ، وابن عربى ، ومهيار الدليمى [2]

---

١ - للمـــزيد : انظر : محمود شاكر ، أباطيل واسمار ، جامعة الإمام ١٤٠٥ هـــ محمود شـــاكر ، نمـــط صـــعب ونمط نحيف ، دار الرسالة ، ١٤٠٥ هـــ . محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، دار الفكر ١٩٨٠م.

٢ - انظر مثلا : على أحمد سعيد (أدونيس) : أغاني مهيار ، دار مجلة شعر ، بيروت ١٩٦١ م. صلاح عبد الصبور ، مأساة الحلاج ، دار الشروق ١٩٨٥ ،سعود الماحى ، أعلام الثورة في التراث ، دار القلم ١٤٢٢هـــ .

وذلك عن طريق النشر المجرد أو التنويه أو التوظيف الفني .

٢- تبريـــر المجون والانحدار الأخلاقي بدعوى تسامح التراث الذي ترد فيه أخـــبار الـــزنا ودواعـــيه ، واللـــواط وعشق المردان ، وشرب الخمرة ، والاســـتهزاء بالـــدين ، وتبذل النساء ، والغناء ، وإتيان البهائم ، والشهوات المجردة ، والألفاظ القذرة ، ولا تواجه ضغطا اجتماعيا كما يحدث الآن[١].

٣- الاستشهاد بالقصص فيه وعدها دليلا شرعيا لإقامة حكم ما خصوصا إذا نسبت إلى عالم فقيه أو صحابى أو إلى النبي صلى الله عليه وسلم [٢]

٤- التلذذ بالأوصاف الحسية للنساء لإشباع رغبات منحرفة عند هؤلاء [٣]

وغير ذلك من الأهداف . ومن أهم المشروعات العربية لإحياء التراث على هذا النمط :

١- المعهد التونسي لإحياء التراث ، الذي أعلن أحد القائمين عليه أن أهم أهدافـــه : (بعـــث التـــراث العربي المتسامح لتنوير المجتمع ضد الظالمين) ويتشهد بالخمرة والغلمانيات والعلاقات المحرمة [٤]

٢- مـــشروع (التنويـــر) فـــي مـــصر الذي يتبناه طائفة من المفكرين التغـــريبيين ، حـــيث يهدف لنشر (الوجه المشرق من التراث)الذي ير هذه الانحـــرافات العقديـــة والفكرية ولا تثرب عليها ، وقد دعوا إليها مرارا في

١- انظر مثلا : أدونيس والمتحول ، ٢/٢١٦، دار آداب ١٩٨١م.
٢ - انظر مثلا : أدونيس والمتحول ، ٢/٢١٦، دار آداب ١٩٨١م.
٣ - انظر مثلا : أدونيس والمتحول ، ٢/٢١٦، دار آداب ١٩٨١م.
٤ . انظر جريدة الحياة، الأعداد (١١٦١٤) فى ٦/١١/ ١٩٧٧م ص ١٨.

الصحف المهاجرة كما فى جريدة الحياة [1] وطبقها بعض الباحثين [2]. وهناك مشروعات تصحيحية ، ولكنها فردية ، وتتسم بالإحصاء العددي للأخطاء [3]

-٢-

إن التراث الأدبي في مجاميع الأدب الضخمة يزخر بما يستنكف عنه العقلاء ولـك أن تقـرأ (ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى) أو (الأغاني) لأبى الفـرج الأصـفهاني (الأمـوي نسبا الرافضي دنيا وهذه من العجائب) أو غيرهما فسنجد شيئا كثيرا من هذا يمكن تفصيل أغلبه فيما يلي :

أولا : المخلفات العقدية : وهي أنواع :

أ-ما يتصل بالإيمان بالله تعالى كبعض المرويات التى تورد للإضحاك على لسان بعض المغرورين السفهاء مما لا ينبغي إطلاقه في حق الله تعالى [4].

ب- مـا يتصل بالفأل والطيرة والتشاؤم وهذا كثير متكرر لا تكاد نجد كتابا من مجاميع الأدب الكبار إلا وهو زاخر بمثل هذا ، ولا يورد على سبيل النعي علـى أصحابه أو وصف حال الجاهلين بل يورد على أنه حقائق ، ولك أن تطالع كل ذلك فى مرويات الأدب [5]

---

١ – انظر جريدة الحياة : الأعداد : (١٢٤٣٢، ١٢٥١١، ١٢٤١٢)

٢ – انظر محمد مكتبى ، مجلة الآداب ، العدد ٦٤ ، ١ص٦٥.

٣ –انظر – مثلا – وليد الأعظمى ، السيف اليمانى فى بحر الاصفهانى صاحب الأغاني ، دار النشر الدولي ،١٤١٤هـ .

٤ –انظر : الحصرى القيروانى ، زهر الآداب ، تحقيق د. زكى مبارك ، دار الفنون ج٢ ص ٥٠١.

٥ –السابق ص ٥٢٤ومابعدها .

ج- مـــا يتصل بعقيدة الولاء والبراء التي هي من أهم عقائد الإسلام ، ومخالفات هذا الباب كثيرة . [١]

د- الوقوع فى الصحابة – رضى الله عنهم وأرضاهم – والخوض فيما شجر بينهم[٢]

ثانيا : المخالفات المسلكية : وهى أنواع :

أ- عرض قصص لفواحش في سياق ترغيبي ومنها :

١-- الزنا -٢- اللواط[٣] ٣- دواعيهما[٤]

٤- الأوصاف الحسية [٥] ٥- إتيان البهائم [٦]

٦- العشق المحرم [٧]

ب- عرض مجالس الشراب وتعاطى الخمرة في سياق ترغيبى [٨] .

ج- تبرير المحرمات وتحسين فعلها [٩]

---

١ -انظر : الأغاني ص ٤٦ -٢١١-٢٢١-٣١٣وغيرها .

٢ – انظر : الأغاني ص ٤٦ -٢١١-٢٢١-٣١٣وغيرها .

٣ – انظر الحصرى القيروانى ، زهر الآداب ، تحقيق د. زكى مبارك ، دار الفنون ج٢ ص٥٠١.

٤ – انظر : الأغاني ص ٤٦-٢١١-٢٢١-٣١٣وغيرها .

٥ – انظر المثال التفصيلى فى هذا البحث ص

٦ – السابق

٧ – نفسه.

٨ – نفسه.

٩ – نفسه.

د- تمجيد الانحراف والثناء على المنحرفين[1].

هـ- مجالس الغناء واللهو وتحسين السماع[2]

ثالثا: المخالفات اللفظية : وهى كثيرة جداً منها : الكذب ، اللعن ، القسم بغير الله ، ذم الدهر وغير ذلك . والتمثيل على هذا كله إليك هذا الجدول :

الكتاب : ثمرات الأوراق [3]

المؤلف : ابن حجة الحموى .

	الموضوع	العدد
١-	المخالفات العقدية في جانب الإيمان بالله	٥٨
٢-	المخالفات العقدية في جانب التوكل على الله	٢١٤
٣-	المخالفات العقدية فى جانب الولاء والبراء	٦٦
٤-	المخالفات العقدية فى جانب الصحابة وما شجر بينهم	١٤١
٥-	المخالفات العقدية فى جانب النبوة	٣
٦-	المخالفات المسلكية : الخمرة .	٤٢١
٧-	المخالفات المسلكية : الزنا ودواعيه	٣٣٨
٨-	المخالفات المسلكية : اللواط ودواعيه	٩١
٩-	المسلكية : الغناء ومجالس اللهو .	١١٨
١٠-	المخالفات اللفظية : أكثر من أن تحصى	

---

١ - نفسه.

٢ -انظر المثال التفصيلى فى هذا البحث ص ٧

٣ -ابن حجة الحمى ، ثمرات الأوراق ، دار ابن حزم ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .

إن المشكلة الحقيقية لا تكمن في وجود هذه المخالفات فى هذه الكتب ولكـــنها تكمن فى تعاملنا نحن مع كتب التراث واعتبارها أثرا مقدسا كل مافيه صائب ، إن بعض كبار كتابنا عانوا فى تمجيد التراث [1]

وتلقاه بعضهم بعقلية الناطيع الذى يتلقى كل ما يشار إليه به بالموافقة مع أنها أخبار الغالب على كثير منها الكذب .

إذن كيف نقرأ التراث ؟ وللجواب على ذلك أقول :

ينبغي علينا أن نتعامل مع كتب التراث وفقا للحقائق التالية :

١- أن هذه الكتب فى الأعم الأغلب إنما صنفت لتسلية طبقة معينة مرفهة مـــن المجـــتمع وهم الولاة والأمراء وأبناؤهم ، وللتمثيل على هذا قلب ،أى مقدمـــة لكتاب تراثي من هذه المجاميع الضخام نجد مصداق الكلام ، بل إن للكاتـــب قـــد يـــنقطع لأحدهم ليصنف له كتابا كما انقطع أبو دعامة العبسى للبرامكة ليصنف لهم كتاب (الشعر والشعراء) انظر = مثلا – كلام ابن على القالى في مقدمة الآمالى : (أما بعد فإني لما رأيت العلم أنفس بضاعة أيقنت أن طلـــبه أنفـــس تجارة فاغتربت للرواية ولزمت العلماء للترابة ، ثم أعملت نفسي في جمعه ، وشغلت ذهني بحفظه حتى حويت خطيرة وأحرزت رفيعه .. وجامعـــة ومقتنية ربيع العفاة وسم العداة ذو الفضل والتمام العقل والكمال المعطـــى قبل السؤال والمنيل قبل أن يستنال الحكم ولى عهد المسلمين وابن

---

١ -انظر : عبد الرحمن السعودي ، تراثنا العبقري ، الخطوة الأولى ،١٤٢٥هـــ

سيد العالمين أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد)[1] وغير ذلك كثير . وما دامت كذلك فلا يهمها التوثيق العلمي ، وإنما حشد النفائس والطيبات ولا بأس من إثارة الغرائز وذكر الألفاظ الخادشة والمستفزة لتزجية أوقات النبلاء ، ولك أن تتصور كاتبا من هذا العصر يتسقط الأخبار من العامة والسوقة ومن المجالس للتسلية هل يبقى عنده ضوابط لم تطالبه الحالة الثقافية بها ؟

٢- إن طائفة كبيرة من مصطفى هذه الكتب نصوا على أنهم يجمعون جمعا وأنهم لا ينحون منحى علميا بل ترويحيا قال ابن قتيبة (ولم أر صوابا أن يكون كتابي هذا وقفا على طالب الدنيا دون طالب الآخرة ولا على خواص الناس دون عوامهم ، ولا ملوكهم دون سواقتهم فوفيت كل فريق منهم قسمه ووفرت عليه سهمه)[2] . وفي موضع آخر (فإذا مر بك سواقتهم فوفيت كل فريق منهم قسمه ووفرت عليه سهمه)[3] . وفي موضع آخر (فإذا مر بك أردنا به ، واعلم أنك إن كنت مستغنيا عنه بتنسك فإن غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه محتاج إليه ، وإن الكتاب لم يعمل لك دون غيرنا [4]

ويقول إذا مر بك (حديث فيه الصباح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة فلا تحملنك الخشوع أو التخاشع على أن يصعر خدك وتعرض وجهك فإن أسماء الأعضاء لاتؤثم)[5]

---

١ -أبو على القالى ، الآمالى ، دار الكتب العلمية ١٤١٦ هـ ، ج١،ص٤

٢ – ابو على القالى ، الآمالى ، دار الكتب العلمية ١٤١٦ هـ ،ج١،ص٤

٣ -ابن قتيبة ، عيون الأخبار – تحقيق د. يوسف الطويل ج١ص٤٤دار الكتب العلمية .

٤ -السابق ص ٤٥.

٥ – السابق ص ٤٦.

٣- أن مصادر هؤلاء الجماعين ، إنما هو أفواه الرواة وحديث المجالس وهذا يجعل الغث أكثر من السمين ، ولم يزعموا يوما أنهم يجرون بحثا علميا ، يقول ابن قتيبة :(واعلم أنا لم نزل نلتقط هذه الأحاديث فى الحداثة والاكتهال عمن هو فوقنا فى السن والمعرفة ومن جلسائنا وإخواننا ومن كتب الأعاجم وسيرهم وبلاغات الكتاب في فصول من كتبهم وعمن هو دوننا غير مستنكفين أن نأخذ عن الحديث سنا لحداثة ولا عن الصغير قدرا لحساسيته ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها فضلا عن غيرنا)[1] هذا مع كون ابن قتية من اعلم هؤلاء الجماع وهو بلاغي أهل السنة المعروف [2] فكيف بالرافضي الأصفهاني والمعتزلى الجاحظ ؟ وقليل من هؤلاء الجماع من كان يسند إلى كتب مثل الثعالبي فى يتيمة الدهر . إن التراث العربي لم يتمثل فيه فصل حقيقي بين الإبداع والانحراف الأخلاقي ، فأى كتاب ينقل أخبار الأدباء نجده يركز على المنحرفين منهم وينقل مجالس لهوهم وشربهم وسر هذا يكمن في عدم تحرير العلاقة الحقيقية بين الإبداع والدين وكون الشاعر والأديب المسلم مطالبا بتمثل اليم الإسلامية فى داخله لئلا يقول قولا يكون وبالا عليه في الآخرة .

٥- الاستقراء الناقص الذي يشوب التأمل التاريخي لأي حقبة أدبية ، إذا استصحب هذا وضعت كتب التراث موضعها فلم تهدر قيمتها ، ولم يرفع قدرها لتكون شاهدا حضاريا وجليلا لنقض كثير من أحكام الإسلام .

---

١ -السابق ص٤٨

٢ .انظر :محمد الصامل ، المدخل إلى دراسة بلاغة أهل السنة – دار اشبيليا ، ط١ ، ١٤١٨ هـ ، ص٢٤

المراجع

١- آبو الفرج الأصفهاني ،الآغاني ، دار التراث،ط ١٥، ١٤٠٤

٢- أبو على القالي ، الآمالى ، دار الكب العلمية ، ١٤١٦هـ.

٣- ابن حجة الحموي ، ثمرات الأوراق ، دار ابن حزم ، ط١ ، ١٤٠٥ هـ.

٤- ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، دار الكب العلمية ، ١٩٩٦ م .

٥- ابن منظور ، لسان العرب ، الرسالة ، ط ١٤ ، ١٤٢٥هـ

٦- الحصرى القيروانى ، زهر الآداب ، تحقيق د . زكى مبارك ، دار الفنون .

٧- بدوى طبانة ، دراسات فى نقد الأدب العربى ، دار الثقافة ، ط ٦ ، ١٣٩٤هـ

٨- صلاح عبد الصبور ، مأساة الحلاج ، دار الشروق ، ١٩٨٥م .

٩-عبد الرحمن المسعودى ، تراثنا العبقرى ، الخطوة الأولى ، ١٤٢٥هـ.

١٠- علي أحد سعيد (أدونيس) أغاني مهيار ، دار مجلة شعر بيروت ١٩٦١ م .

١١ - علي أحمد سعيد (أدونيس) ، الثابت والمتحول ، ٢/ ٢١٦دار آداب ١٩٨١م .

١٢- على مكى ، إحياء التراث العالمى ، دار الآفاق ، ط١، ٢٠٠١م.

١٣- محمد الصامل ، المدخل إلى بلاغة أهل السنة ، دار أشبيليا ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ

١٤- محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، دار الفكر.

١٥- محمود شاكر ، أباطيل وأسمار ،جامعة الإمام ١٤٠٥هـ

١٦- محمود شاكر ، نمط صعب ونمط مخيف ، دار الرسالة ، ١٤٠٥هـ .

١٧- مسعود الماحى ، أعلام الثورة فى التراث ، دار القلم ، ١٤٢٢هـ .

١٨- ميخائيل عيد ، أغانى الحلاج ، دار بيروت ، ١٩٨١م .

١٩- نجيب الكيلانى ، عمر يظهر فى القدس ، دار الرسالة ، ١٣٩٨هـ .

٢٠ - ولـيد الأعظمى ، السيف اليمانى فى نحر الأصفهاني صاحب الأغاني ، دار النشر الدولى ، ١٤١٤هـ .